نداء اسلامي

لتحرير المرأة

بقلم الأب لامنس اليسوعي

ظهر في بيروت كتاب جديد اسمه « السفور والحجاب : محاضرات ونظرات مرماها تحرير المرأة ، والتجدّد الاجتماعي في العالم الإسلامي ؛ تأليف الآنسة نظيره زين الدين » وهو مُهدى الى والد المؤلفة ، سعيد بك زين الدين الرئيس الاول لمحكمة الاستئناف في الجمهورية اللبنانية . ونحن اذا اعتبرنا هذه التقدمة الصادرة عن برّ بالوالد بليغ ، وتدبّرنا بإزوية نصّها الدقيق ، علمنا ان امامنا مؤلفين للكتاب لا مؤلف واحد ، وشعرنا ان « السفور » وليد المحادثات العيلية ، ونتيجة جهود الابنة والوالد الذي احتجب ، بعد انتهاء العمل ، مختفياً وراء من كان عليها كتابة امالية ، لأننا ، دون ان نبخس الآنسة نظيرة حقّها ، نرى ان اسلوب المناظرة في الكتاب ، والاستشهاد الكثير بأحكام الشريعة ، مع تلك السهولة في استعمال الفقه والقوانين ، كلّ هذا ينمّ عن تدخل رجل القانون . وكذلك فان الاستشهاد بفتاوي القرآن ، والاشارات العديدة الى مجاميع الحديث ، ليست من المواضيع التي تحذقها الفتيات على مقاعد المدرسة .

وقد استلمنا ، برفق النسخة التي اهديت الى مجلّتنا ، رسالة ترجو بها الآنسة نظيرة من ادارة التحرير ان تبدي رأيها بكل حرّية . فنحن ، مع شكرنا للآنسة ثقتها فينا ، نجتهد في ان لا نطيع تلك الدعوة . لاننا قلنا سابقاً (مشرق آذار من هذه السنة ص: ١٣٦) ان المسألة لا تهمّ الا المسلمين ، ولهم وحدهم الحق في ان يفحصوا فوائد الحجاب وضاره ويعيّنوا مقدار ما ينبغي ان يعطوه من الحرية لنسائهم . أمّا في ما يخصّنا من ذلك فقد حلّت المسألة ، منذ نحو الفي سنة ، بفضل الانجيل ، وقانون المدنية المسيحية .

على ان تحامينا الدخول في هذا البحث لا يمنعنا من القول ان الكتاب جمّ

الفوائد ، يثير كثيراً من المسائل . واذا استثنينا بعض المراجعات ، ظهرت اكثر البراهين متسلسلة بوضوح ، موفقة في عرضها ، لاذعة بعض الاحيان . وانها للمرة الاولى التي يظهر فيها في سوريا ، على ما نظن ، درس موضوع السفور بهذا المظهر الجامع (اكثر من ٤٢٠ صفحة) وبهذه السعة في العقل ، تكتبه مؤلفته مُسلمةً ، فتتكلم وتناظر مسلمةً .

ونحن ، دون ان ننكر حقها في ذلك او ننحاز اليها او عنها ، نرى ان قرّاءنا يشكروننا اذا ما اوردنا لهم ملخص الكتاب ، واشرنا الى اهمّ البراهين التي تستند اليها المؤلفة . فيكون دورنا دور الناقل ليس غير . وهكذا فلا نخشى ان نحتجب وراء الكاتبة ، تاركين لها مجال الكلام ، ناقلين بعض نصوصها .

* * *

يبدأ القسم الاول « بمجملات عامة في الحرية ، والحق ، والشرع ، والدين ، والعقل » وليس هو اطرف ما في الكتاب . تعرض فيه مؤلفته ما يستند اليه اعداء السفور من ان المرأة احطّ من الرجل ديناً وعقلاً ، وبما يبرهنون على ذلك من ادلة يتخذونها من الشريعة القرآنية التي تعتبر المرأة نصف رجل في مسائل الشهادة ، والإرث ، وتعطي الرجل حقّ تعدّد الزوجات ، والاستبداد بالطلاق متى شاء دون رضاهنّ . ثم تجتهد في دحض تلك الاستنتاجات (الصفحة ٩٠ وما يليها) . تشهد بنصوص عديدة من الحديث . على انه بامكان الاعداء ان يوردوا نصوصاً اخرى من الحديث تعاكس تماماً هذا الرأي . فلمن تميل الحجّة ؟ وباي نصّ تتعلق الحقيقة ؟

ويأتي القسم الثاني وفيه توسيع الادلة العقلية فيبدأ هكذا : (ص: ١٠٩)

« قابلتُ في اول الامر بين عدد انصار السفور ، فرأيت ان أهل الحجاب لا يجاوزون عدة ملايين من الاسلام يسكنون المدن ، وان العالم الاسلامي في القرى ، وأكثر من الف وسبعمائة مليون من الامم الاخرى ، كلهم من اهل السفور ، وقد نبذوا الحجاب الذي كانوا انصاره من قبل ورأيت ان الامم التي نبذت الحجاب ، امم راقية في العقل والمادة ، رقياً ليس للامم المتحجبة مثله . فالامم السافرة هي التي اكتشفت بالبحث والتنقيب اسرار الطبيعة ، وسخرت لارادتها العناصر ، كما تعلمون وتشاهدون . اما الامم المتحجبة فلم تكتشف سرّاً ، ولم تسخر لارادتها عنصراً ، وانما هي تتغنى بمجد مضى ، وتقليد لما قدم ، معتمدة بذلك الثناء على الجمود . »

بعد هذه المقابلة ، تؤكد المؤلفة ان الحجاب لم يكن فخراً للرجل بل هو اهانته لانه يجعل كلّ رجل « يحقر امّه ، وابنته ، وزوجته ، واختـه ، بسوء ظنه المستمرّ ، يـتد اليهنّ فساد الأخلاق » ويعتبر عن عاجزات عن مقاومة ميول الطبيعة الفاسدة . وهي تستشهد بقول شوقي بك « امير الشعراء » :

« ان السفور كرامةٌ وعفافةٌ ، لولا وحوش في الرجال ضواري »

ولكن من حسن الحظّ ان الشعراء يستطيعون ان يغيّروا آراءهم كلما عنّ لهم ذلك ، وان لا يتقيّدوا اليوم بما قالوه أمس . وما قولكم بهذه الابيـات لشوقي بك نفسه :

قم حيّ هـذي النيّرات ! حيّ الحسان العبّرات !
واخفضْ جبينـك هيبةً للخرّد المتخفّرات !
مصر تجـدّد مجدهـا بنـاتهـا المتجدّدات ،
النافرات من الجبـو ن كأنهـنّ شبح الممات :
هـل بينهنّ ، جوامـدًا ، فرقٌ وبين الموميات !

وان الآنسة نظيره تأبى كل الإباء ان تمدّ بين تلك « الموميات » . وهي تعتبر ان الحياة في العالم ، والاجتماع المختلط ، يتمّ التهذيب المـدرسي ، وان الاجتماعات الميلية مراقي العقل والاخلاق . ودون ادنى حياء بشري ، تذكر مثال الراهبات السافرات فتقول :

« لا يجوز لنا ان ندّعي ان نساءنا المتحجّبات يزحن الحاضر الخلاب اكثر شرفاً ، وأكمل ادباً ، واعفّ نفوساً ، وابعد زيّاً عن التبرّج والفتنة من الراهبات السوافر السافرات اللواتي اقتطعن من الرجال ولا قوّام عليهن في هذه الحياة ، كأنما هنّ اللواتي عملن بكتاب الله وسنة رسوله في العلم والتعليم وفي الزيّ اذا خرجن من بيوتهن . وكأنما نحن الآن خالفنا .

ان كل من تأمل منصفاً بعقل مجرد عن الهوى يرى ما رأيت .

وهل بيننا من لا يثق بهنّ كل الثقة وقد اعترف لهنّ العالم بحسن السجايا فضلاً عن شديد عنايتهنّ بتهذيب الصغار وتثقيف اخلاقهم واثارة عقولهم .

وهل ينكر احد انهنّ مرجع الفقير ، وملجأ العاجز والمريض ، وغوث المنوز واليتيم ؟ أكان سهلاً عليهن ان يفعلن ما يفعلن في سبيل خير البشر لو كنّ في اسر الحجاب يرسفن بقيوده كما يريد سيدي الرجل ان نكون نحن ؟

وهل يرضى الله عزّ وجلّ، وهو العدل كله، من ضعفنا وخمولنا ونحن نجبات، ولا يرضى عن جليل عمل اولئك ومنّ سواهم، وقد ملأن البشرية بنافع واحسانا ؟

انظروا مساعد العلم التي انبتها، وهي تنير ارضنا كما تنير النجوم السماء. انظروا اليها وقد صيّرها قوة الحرية والارادة وسمو المدارك وصدق العزيمة، جنات باسقة الاغصان ناضجة الثمار. واسمعوا من وراء جدران الملاجئ دعاء الايتام والمعوزين الذين رفعهم يد الشفاء الى وهدة البلاء والشقاء، فتلقفتهم ايدي ملائكة البر والعطف البشري تشبع جوعهم، وتكسو عريهم، ناشلة اياهم من تلك الوهدة.

انظروا كل هذا يا سادتي الرجال، وقابلوا بين الفئتين الراميات السوافر، والنساء المحجبات اللواتي حرمن القوّامين عليهن، ترفا هؤلاء وقد عجزن عن كسب قوتهنّ يتراكمن على ابواب المحاكم الشرعية ودوائر التنفيذ منكسرات القلوب ذليلات النفوس يسألن نفقة تقيهنّ فاقة الجوع، وبعضهنّ يشتهي الرغيف، واولئك يعضمن الفقر والبؤس. افلا يخشى الرجل ان تتبذّل المرأة التي لا معين لها اذا عجزت، وقد منعها الحجاب، عن كسب رزقها الحلال ؟ (ص: ١٥١-١٥٢)

ولكن اعداء السفور يدّعون ان ترك الحجاب يجرّ الى ترك المنزل، فعدم الاهتمام بتربية الاطفال، ويقود لا محالة الى قلة الوليد. فتجيب الكاتبة «ان عدد نفوس الملل الاسلامية المحجّبة في تأخر وتوقف، ونفوس الملل السافرة تتضاعف عددًا في عشرات السنوات.» ثم تلقي نظرة عامّة فتقول:

حين ترى ان مدينتي لندن ونيويورك تبلغ نفوس كل منهما عدًّا سبعة ملايين ونيّفًا، وذلك اضاف اضعاف ما كانتا عليه قبل مئة سنة، واضعاف ما بقي في سورية ولبنان وفلسطين والعراق من نفوس.

حين نرى المدن الاخرى في العالم السافر تتضاعف مثلها نفوسًا حتى ضاقت ارض السفور باهلها على رحبها فانتشروا في الارض مستولين بما خلفت عقولهم من قوة، وبما اعدّوه من عدة، على بلدان الامم المحجبة، او بلدان الامم المتأخرة، وهي التي است الارض فيها واسسة على سكانها الجامدين في مقدار نفوسهم، كما جمدوا على العادات في عقولهم او تأخروا.

حين نرى الحقائق تنصرف دون اعتراض على حكمة الباري، ودون انكار لحكم الاجل، ان نصف الاطفال عندنا يموتون من جهل امهاتهم، وقلما يموت عندهم طفل الا بقدر.

حين نرى ما انجبت تلك الامهات في هذا العصر، عصر العلم والنور، من مخترعي طيارات وسيارات وغوّاصات وتلغرافات وتلفونات سلكيات ولاسلكيات، وميكروسكوبات وتلسكوبات. ومن كاشفي بكتريات، وايونات، وراديوم وانوار واشعات، وغير ذلك من المدهشات المذهلات.

حين نرى كيف انجبت اولئك الامهات السوافر اولئك المخترعين والمخترعات، والمكتشفين والمكتشفات، والعلمين والعلمات، والاطباء والطبيبات. ثم نلقي نظرة الى انفسنا والى ما انجبت امهاتنا.

حين نتأمل فنرى ونعرف ، ان لا فرق بيننا وبين ذلك العالم ، إلّا نقاب النساء ، يجب ان نعترف بان الامم هناك لم تضل تربية اولادها ، بل أحسنتها وان السر في زيادة عدد النفوس هناك ، ونقصانها هنا ، انما هو حسن تربية الامم عندهم وسوء تربيتها عندنا . (ص: ١٦٢-١٦٣)

ثم تنال الآنسة نظيره من جبن الرجال ، والتناقض بين آرائهم واعمالهم (ص : ١٦٥) فاكثرهم يعترفون باضرار الحجاب ، ولكنهم لا يجرأون على رفعه خائفين من نقد العامة . ويزعم غيرهم انه من اللازم قبل السماح بالسفور « تعميم تعليم البنات ، وتهذيب الشباب ، تعليماً وتهذيباً صحيحين ، وبعندئذٍ يحسن تعميم السفور . » (ص : ١٧١) ولكن هذا المنطق لا يقرّ الآنسة فتلاحظ انه لا تهذيب ولا تعليم مع الاحتفاظ بالحجاب وحبس النساء ، فيلزم اذن رفع ذاك الحاجز . (١

* * *

اما القسم الثالث فيتناول الادلة الدينية ويتوسع فيها في البرهان عن نظرية المؤلفة . وهذه الادلة مستمدّة من المعتقدات الاسلامية ، وسنختصر ايجازنا لها لئلّا يؤول بنا الأمر الى مناظرة في ذلك . فنكتفي اذن بالقول ان المؤلفة تزعم ان آيات القرآن القائلة بتحجب النساء ، وبقانهنّ في المنزل ، لا تخصّ الّا نساء النبي (ص : ١٨٧) وان المفسّرين أخطأوا في تعميم تلك الآيات على المسلمات كافّة . وهي تؤكد ايضاً انه ، في القرن الاول للاسلام ، لم يكن استعمال الحجاب عاماً بعد ، ولم يكن من فرق ، في العلاقات الاجتماعية ، بين الرجال والنساء (ص : ١٩٠) . واخيراً تنعى عليها تنادياً من الوقوع في اغلاط كالتي تنسبها المؤلفة الى المفسرين ،

نرى من الواجب ان تؤلف لجنة لتفسير القرآن من اجلّة الفقهاء المصريين ، وعلماء الاجتماع والاخلاق ، وذوي الاختصاص في العلوم والفنون المتنوّعة ، يشتغل كل منهم ضمن دائرة اختصاصه . (ص : ٢١٦)

ويتهي المطالع الى القسم الرابع ، وهو اطول الاقسام واوفرها طرافة .

---

١) في الصفحة ١٦٩ ، تذكر المؤلفة حادثة غاليه الشهير فتقول انه لمّا هُدّد بالحريق ، اقتحم النار ومات . ولا ندري من اي نبع استقت هذه الخرافة ؟

وفيه الردّ على بعض الكتابات الحديثة ضدّ السفور. ونحن نمرّ عليه بسرعة آخذين بعض المُثُل منه ، محيلين القرّاء الى مطالعته في الكتاب نفسه ، مؤكدين لهم انهم لا يضيعون وقتهم ، ولا يندمون اذا طالعوه.

تفتتح المؤلفة سلسلة ردودها بذكر معارضة لاحد قضاة الشرع سابقاً ، دون ان تذكر اسمه (ص : ٢٧٥) ، ثم تنتقل (ص : ٢٨٠) الى كتاب للشيخ سعيد البغدادي ، وهو يزعم ان النساء ، اذ ظهرنَ سافرات ، اوقعن الرجال في الكبائر . فتردّ عليه بقولها:

اذا كان يجب ستر ما يراه الانسان مما ليس قادراً عليه ، ولا صابراً منه ، فيجب ان يستر عن كل انسان كل ما يشتهيه ، وعن الفقراء كل ما عند الاغنياء ، من بيوت وملابس ، ومآكل ، واسباب الرفاهية على انواعها. (ص: ٢٨٢)

ويرى الشيخ نفسه ان لبس الحجاب يميز الإنسان عن سائر الحيوان . . . فتجيب :

قلت: اذن الاولى بسيدي المرشد ، ان يتحجب ويضع النقاب على وجهه ، مثل النساء ، ليمتاز عن سائر الحيوان ، فالرجل اجدر من المرأة بهذا الامتياز ، لان عقله كامل ، وعقل المرأة ناقص ، كما زعم حضرته في جوابه على السؤال الثاني في الرسالة المذكورة. وهكذا اقول ، لكل من يقول ان الحجاب للمرأة ليس بدليل على تخييرها ، انما هو دليل على احترام الرجل اياها ، اني اقول له: اذن الاولى بالرجل ان يحرز مثل هذا الدليل على احترام المرأة اياه ، فيحتجب ساتراً وجهه. والا فهو مراء فيما يقول و « إنَّ اللهَ حرَّمَ الجنَّةَ على كلِّ مرّاء ». (ص: ٢٨٥-٢٨٦)

وان الشيخ البغدادي الذي سمّى كتابه بهذا العنوان الجريء « السيف البارق في عنق المارق » يثير قريحة الآنسة نظيره فتفهمه ان الزمان قد سار بنا ، وتسأله :

اجوز لنا بعد ان نستعمل « بارودة بنيل » بجاه البراديل والفنابل والمدافع البعيدة المرمى ؟ وهل يجوز ان نستعمل الثوب والجمال ، بجاه الدبابات والدبّابات والسيّارات المصفّحة؟ اجوز لنا ان نؤثر الجهل على العلم ، والظلم على العدل ، والباطل على الحق ، والاستبداد على الحرية ، والحجاب على النور؟ (ص: ٣٠١)

وهنا نكتفي بالاشارة الى ردّ محكم (ص : ٣٠٢) على احد شيوخ الازهر وهو من اعداء تعليم النساء.

واوفر منه طرافة ذاك الرد على الشيخ محمد رحيم الطرابلسي القائل ان الدين الاسلامي يجبر المسلمين ان يتميزوا عن غيرهم باللباس ، فيلزمهم مثلاً ان يحافظوا على العمامة ولا يتشبهوا بغيرهم (ص: ٣٢٩) فتجاوبه المؤلفة قائلة :

يا سيدي الشيخ ، اذا كان الاشتراك في الملبس ممنوعاً ، سواء كان مقروناً بقصد التشبه والميل لدين صاحب الزي ، او لم يكن ، فلم اشتركنا معهم في كل ملابسهم ، واخذنا عنهم كل ما يلزم لمعيشتنا حتى الابرة والخيط ، والمقلة و « الشحّيط »

لقد أجهدنا بعض ذوي العمائم يا سيدي الشيخ ، في التعصب الجامد ، والورع البارد ، حتى خدرت عقولنا ، وشلت ايدينا ، وعجزنا عن صنع ما يلزمنا ، وجلبنا كل شيء من العالم السافر الراقي ، ولبناء او استصناع ، ولم يبقَ شيء مما عندهم لم نشترك فيه ، الا البرنيطة او المظلة ، والمؤمنون احقّ منهم بها . وقد كانت عندنا قبل ان كانت عندهم ، ونحن احوج منهم اليها فالحرّ عندنا اشد من الحر عندهم . (ص: ٣٣٦)

وهنا تُرفق الكاتبة الى ذكر كل ما حُرّم قديماً من الرفق على غير المسلمين ، والتي جمعها قدماء الفقهاء كابن عابدين ، ثم تقول :

لم يجز ابن عابدين لغير المسلم ، ان يركب الخيل مطلقاً ، وان ركب حمارًا لضرورة فيترل عنه عندما يمرّ بالمسلمين ، واوجب عليه التضييق ، والجاءه الى اضيق الطريق ، كل ذلك للاوزمته الذلّ والصغار على ما ذكر . وانظر اليوم ، انت يا سيدي الشيخ ، الى غير المسلم ، الا ترى انه بعد نيل حرياته واقلاله من قيوده واغلاله ، لم يكتفِ بتسخير الارضين ، وسهولها ، وحزونها ، لمجلاته ، وسيّاراته ، ودبّاباته ، وبتسخير البحار لبواخره ، وغواصاته ، ومدرعاته ، بل سخر الافلاك الدائمة لطياراته ، وركب متن الجو ينظر الى الارضين من علٍ ، مسابقاً بالقطبين والاوقيانوس الشاسع الواسع ، الفاصل بين العالمين ؟

لم يجز ابن عابدين لغير المسلم ، ان يسكن داراً عالية البناء لئلا يقف عند داره سائل ويدعو له بالمغفرة او بالعمل في التفرع . وانظر اليوم انت يا سيدي الشيخ ، الى غير المسلم ، وقد نال حريته ، وافلت من قيوده واغلاله ، الا ترى ان قصوره الشاهقة ، وقد يبلغ بعضها سبعين طبقة ، تناطح السحاب وقد تعلوه ؟ وهو لا ينظر السائل ليدعو له بالمغفرة ، او يعامله بالتضرّع ، انما ترفّع عن ذلك ، وهو يرسل الى ما وراء البحار ، والى كل الاقطار ، ملايينه وملياراته ، لاسعاف الفقير ، وشفاء المريض ، ونشر العلم ، وتثقيف العقل ، واسعاد البشر ؟

لم يجز ابن عابدين لغير المسلم ، ان يستخدم العبيد والجواري استخداماً به . فتأمل انت يا سيدي الشيخ فيما فعل غير المسلم ، بعد نيل حرياته واقلاله من قيوده واغلاله . انه حرّر العبيد والجواري ، في الدنيا كلها جبراً ، بمعاهدات خاصة ، وبدلاً من ان يستعبد اخوته وأخواته من

بني الانسان ، ويسخرهم ، استبد الطيمة الجامدة ، مسخرًا اياها ، ومسخرًا قواها لارادته ، وخدمته ، وراحته ، ونعمه .

لم يجز ابن عابدين لغير المسلم ، ان يلبس الثياب الفاخرة ، مثل الصوف المربع ، والجوخ الرفيع ، والابراد الرقيقة ، ولا زنار الابريسم لان ذلك جفاء في حق الاسلام ومكسرة لقلوبهم ، بل يلبس الكستج ثوب الذل والذل ، مع كونه من خيوط الصوف والشعر الشعين .

وقد تناسى ابن عابدين على ما يظهر انه لما علّم القرآنُ نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم ان يستعيذ من مساوئ الاخلاق كان الحسد من جملة ما لقنه الاستعاذة منه فقال تعالى (قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ . من شَرِّ مَا خَلَقَ . . . وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ) .

وانظر اليوم يا سيدي الشيخ ، الى غير المسلم ، الا ترى انه قد حصر فيه صنع الاقمشة الفاخرة ، كما حصر فيه سائر الصناعات العامة عنوان العز والقدرة ؟ فهو الذي يرسل الينا من الاقمشة الفاخرة ما نلبس .

هل يرى ابن عابدين موافقًا لمكارم الاخلاق التي اتى بها نبينا صلى الله عليه وسلم لتسميها ، ان نحسد غير المسلم ، على لبس الملابس الفاخرة ، وزنار الابريسم ، ونعد ذلك مكسرة لقلوبنا ، في حين ان غير المسلم ، يرسلها الينا من وراء البحار ، لنتزين بها ، دون ان يجول في فكره شيء من الحسد ؟ (ص: ٣٥٢-٣٥٣)

ثم تسرد الكاتبة الاحاديث الكثيرة التي ورد فيها ان الله «يحب الجمال والتجمّل ، ويبغض البؤس والتباؤس» . « فلماذا تُكلف المرأة ان تكون بغيضة ، مكذّبة بنعمة الله » (ص: ٣٦١) وهي لا تخشى الدفاع عن البرنيطة وتقول :

وانك يا سيدي الشيخ ، تفاوم لبس البرنيطة ، وما هي الا مظلّة . وقد سئل الرضا رضي الله عنه ، عن رجل يلبس البرطلة ، فقال : « قد كان ابو عبدالله جعفر الصادق رضي الله عنه ، يلبس مظلة يستظل بها من الشمس » (ص: ٣٦٢)

فكيف تلوم المسلم يا سيدي ، اذا استحسن مظلة فلبسها يستظل بها من الشمس ، وقد لبس مثلها ابو عبدالله جعفر الصادق رضي الله عنه .

لبس المسلمون الطرابيش ، وما هي الا قلانس يونانية الوضع ، تركها الاتراك بما غيروا فيها ، حتى صارت الى حالتها الحاضرة ، وهي جامدة على حال واحد صيفًا شتاء لا تتغير . إنهم في هذا الشرق ، جعلوا كل لبس للانسان ، يتغير بحسب الفصول ، والحر والقر ، الا لبس الرأس ، فانهم جعلوه جامدًا . وكأنهم اجدوه ، لأنه لبسُ مواطن القول التي ارادوا واشاء ا ان يجمدوها . (ص: ٣٦٣)

وتقف الآنسة نظيره امام معارضة للشيخ الفلايني في كتاب «الدين الاسلامي واللورد كرومر» فتقول أن كتابه هذا من عمل الشباب، وقد يكون مؤلفه نال في العشرين سنة التي مضت على تأليفه، آراء جديدة عن دور المرأة في الحياة. اما الشيخ فانه يبدأ بمنح المرأة بعض الحقوق، ثم لا يلبث ان يسترجع كل ما منح فيقول بكل تشاؤم مستشهداً بقول غيره:

«ما دامت المرأة تضيع ثلاثة ارباع الوقت ان لم اقل تسعة اعشاره في الملبس والزينة، وتقضي معظم العشر الباقي في الكلام عن الاثنين، فهي لا يمكنها المطالبة بحق واحد من حقوق الرجل. ولو وكل امر تدبير هذا الكون الى النساء فقط لكان اليوم قفرا هذا ان بقي»!!

ولكنّ محمّداً «جعل المرأة ربة المنزل وسيدته».

وأنّى تكون ربةً لمنزل او سيدة فيه حقاً، وهي في عرف رجلها، لا يجوز لها ان تقرب من نافذة ذلك المنزل، او تطلع الى سطحه، او تخرج الى شرفته، او داره، بل يجب عليها ان تخدمه فيه، ورقةً تحيه، كأمة بين يديه.

كيف تكون ربة لمنزل او سيدة فيه حقاً، وهي في عرف رجلها لا تزال في المنزل، كما قال السيد جميل بيهم، الّا من قبيل الفتية، يُتزوّج بها للخدمة والتناسل، ويترفّع الرجل سيدها عن مصاحبتها، ومؤاكلتها، ومجالستها، وجنأ بوجها لانه يتهيأ له بذلك فراش جديد؟

أهذه هي المساواة التي امر بها الدين؟ أهذا هو تعليم شارعنا الذي اوجبته الشريعة الاسلامية؟

ان المرأة لا تعارض احكام شرع الله، يا سيدي الشيخ، بل تعارضك وأمثالك طاعة واحتراماً له، وانما تعارض ما يدخلها به الرجل خلافاً للدين، ولشرع الله، ولقانون البشر، ولتعاليم الطبيعة، ولغريزة والمصلحة. (ص: ٢٠٨)

وينتهي الكتاب بان تسأل المؤلفة ما عساه يقول ابو حنيفة لو بُعث حيّاً... فتقول انه لو بُعث حيّاً لرأى في كتاب السفور ما يدفعه الى التفكير، فالموافقة على ما فيه من روح التحرر الحقيقي. ونحن نعلم ان مذهب مذهب اصحاب الرأي، ولذا فهو يرى من الواجب استعمال العقل في المسائل المتعلقة بآداب المجتمع.